

المختصر المفيد

في بيان دلائل أقسام التوحيد

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

المختصر المفيد
في بيان دلائل أقسام التوحيد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

مكتبة ابن القيم
للنشر والتوزيع

الكويت - الفحيحيل - شارع ابن تيمية بجانب مستوصف الفحيحيل القديم

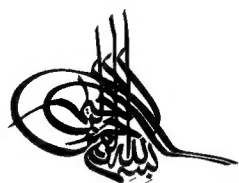
ت: ٠٠٩٦٥٢٣٩١٢٤٧٢ فاكس: ٠٠٩٦٥٢٣٩٢٠٠٦٠

البريد الإلكتروني: abo.asma@hotmail.com

المختصر المفيد في بيان دلائل أقسام التوحيد

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وخيرة رب العالمين: نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه رسالة مختصرة، وورقات يسيرة في بيان بعض البراهين والدلائل على أقسام التوحيد، وصحة تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، اختصرتها من كتابي الذي رددت فيه على من أنكر هذا التقسيم؛ تحقيقاً لرغبة عددٍ من الأفاضل، وأسأل الله أن ينفع بهذا المختصر وأصله بمئه وكرمه.



بيان مختصر لأقسام التوحيد

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأنَّ الله تعالى ربُّ كلِّ شيء ومالِكه وخالقه ورازقه، وأنَّه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدَّعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كُلُّه، وبيده الخير كُلُّه، القادر على كلِّ شيء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر.

القسم الثاني: توحيد الأسماء والصفات، وهو الإقرار بأنَّ الله بكلِّ شيء عليم، وعلى كلِّ شيء قدير، وأنَّه الحيُّ القيوم الذي لا تأخذه سِنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنَّه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنَّه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحانه الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنَى، والصفات العلى، والإيمان الجازم بها دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل.

القسم الثالث: توحيد الإلهية، ومبناه على إخلاص التَّأَلُّه لله تعالى، من المحبَّة والخوف والرَّجاء والتوكُّل والرَّغبة والرَّهبة

والدِّعاء لله وحده، وإخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له، فلا يُجعل فيها شيءٌ لغيره، لا لِمَلَكٍ مقَرَّبٍ، ولا لِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فضلاً عن غيرهما. وهذا التوحيد هو الذي تَضَمَّنَه قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهو أوَّلُ الدِّينِ وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أوَّلُ دعوة الرسل وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلا الله؛ فَإِنَّ الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خُلِقَت الخليقة، وأُرْسِلَت الرسل، وأُنْزِلَت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار.



أضداد هذه الأقسام

ولكلّ قسم من هذه الأقسام الثلاثة ضد؛ «إذا عرفت أنّ توحيد الربوبية هو الإقرار بأنّ الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبّر لجميع الأمور المتصرف في كلّ مخلوقاته لا شريك له في ملكه، فضدّ ذلك هو اعتقاد العبد وجود متصرّف مع الله غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وإذا عرفت أنّ توحيد الأسماء والصفات هو أن يدعى الله بما سمّي به نفسه، ويوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد ﷺ، ويُنفى عنه التشبيه والتمثيل، فضدّ ذلك شيئان، ويعمّهما اسم الإلحاد:

أحدهما: نفى ذلك عن الله عزّ وجلّ وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة بالكتاب والسنة.

وثانيهما: تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]،

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾
[طه: ١١٠].

وإذا عرفت أنَّ توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، ونفي العبادة عن كلِّ ما سوى الله تبارك وتعالى، ففضدُّ ذلك هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الغالب على عامَّة المشركين، وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها»^(١).

(١) «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي (١/٤١٨).

توحيد الربوبية وحده لا يكفي

لقد حكى الله سبحانه في كتابه عن المشركين أنهم مُقْرُونَ بتوحيد الربوبية، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا فَكَيْفَ يَكْفِيهِمْ وَلَا يَنْجِيهِمْ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِإِشْرَاكِهِمْ فِي تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ الَّذِي هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ولهذا قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال ابن عباس: «من إيمانهم: إذا قيل لهم: مَنْ خلق السماء، وَمَنْ خلق الأرض، وَمَنْ خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون».

وقال عكرمة: «تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض؟ فيقولون الله. فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره».

وقال مجاهد: «إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تليق تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. المشركون كانوا يقولون هذا»^(١).

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي: لا تشركوا بالله غيره من

(١) انظر: «جامع البيان» (١٣/٧٧-٧٩).

الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لا ربَّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه.

وقال قتادة: «أي تعلمون أن الله خلقكم وخلق السموات والأرض ثم تجعلون له أنداداً»^(١).

وقد أورد ابن القيم رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أنه قال: «يريد: عدلوا بي من خلقي الحجارة والأصنام بعد أن أقروا بنعمتي وربوبيتي»^(٢).

ومن الشواهد على اعتراف المشركين بربوبية الله من كلامهم: قول زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى فمهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

قال ابن كثير - وقد أورد هذين البيتين - : «فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد

(١) انظر: «جامع البيان» (١/١٦٤).

(٢) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٢/٢٢٦).

وبالجزء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة»^(١).

وقال ابن جرير: «وقد أنشد لبعض الجاهلية الجاهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا عجيلتنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق»^(٢)

والشواهد على هذا كثيرة، ومع ذلك فهم مشركون؛ لأنهم يعبدون مع الله غيره.



(١) «تفسير ابن كثير» (٢٣٨/٤).

(٢) «جامع البيان» (٥٨/١).

ذكر بعض دلائل هذه الأقسام

ولهذه الأقسام الثلاثة للتوحيد دلائل كثيرة وبراهين عديدة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تحصر، يعرفها من لديه أدنى إلمام بنصوص الكتاب والسنة، بل إن من يحفظ فاتحة الكتاب^(١) وسورة الناس يجد فيهما ما يشفي ويكفي من وضوح دلالة ونصوع برهان على هذا التقسيم، بل هو أكبر الحقائق الشرعية المقررة في الكتاب والسنة.

١- فمن أدلة توحيد الربوبية: قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوتُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢٤/١) وما بعدها قوله: فصل في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة.

كُلِّ شَيْءٌ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾
 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وقوله تعالى:
 ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]،
 وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾
 [الزمر: ٦٢]، وغيرها من الآيات.

٢- ومن أدلة توحيد الألوهية: قول الله تبارك وتعالى:
 ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ؛ لَأَنَّ اللَّهَ مَعْنَاهُ الْمَالُوهَ الْمَعْبُودَ. وقوله:
 ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدًا
 رَبَّهُمُ الَّذِي خَلَقَهُمُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]،
 وقوله: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ
 وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
 زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢-٣]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَغْبَدُ مُخْلِصًا لِمِ دِينِي﴾ ﴿٤﴾
 فَاَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤-١٥]، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
 لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ
 دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وغيرها من الآيات.

٣- ومن أدلة توحيد الأسماء والصفات: قول الله تبارك
 وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣﴾ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وقوله
 سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسَيْنِ ﴿الْإِسْرَاءُ: ١١٠﴾، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]،
 وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]،
 وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]،
 وآخر سورة الحشر، وغيرها من الآيات.



من الآيات الجامعة لأقسام التوحيد الثلاثة

ومن الآيات التي جمعت أقسام التوحيد الثلاثة :

١- قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

فإن هذه الآية الكريمة المباركة متكونة من عشر جُمْل، فيها من توحيد الله وتمجيده وتعظيمه وبيان تفرده بالكمال والجلال، ما يحقق لمن قرأها الحفظ والكفاية، وفيها من أسماء الله الحسنی خمسة أسماء، وفيها من صفات الله ما يزيد على العشرين صفة، وقد بُدئت بذكر تفرّد الله بالألوهية وبطلان الألوهية كلّ من سواه، ثم ذكر حياة الله الكاملة التي لا يلحقها فناء، وذكر قيوميّته سبحانه، أي قيامه بنفسه وقيامه بتدبير أمور خلقه، وذكر تنزهه سبحانه عن صفات النقص كالسنة والنوم،

وبيان سعة ملكه سبحانه، وإنَّ جميع مَنْ في السماوات والأرض عبيد له داخلون تحت قهره وسلطانه، وذكر أنَّه من أدلة عظمته أنَّه لا يمكن لأحد من الخلق أن يشفع عنده سبحانه إلا من بعد إذنه، وفيها إثبات صفة العلم لله سبحانه، وأنَّ علمه سبحانه محيط بكلِّ معلوم، فهو يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وفيها بيان عظمة الله سبحانه بذكر عظمة مخلوقاته، فإذا كان الكرسيُّ وهو مخلوق من مخلوقاته وسع السماوات والأرض، فكيف الخالق الجليل والرَّب العظيم، وفيها بيان كمال اقتداره سبحانه، وأنه سبحانه من كمال قدرته لا يؤوده أي لا يُثقله حفظ السماوات والأرض، ثم ختمت الآية بذكر اسمين عظيمين لله، وهما: العليُّ العظيم، وفيهما إثبات علوِّ الله سبحانه ذاتاً وقدرًا وقهرًا، وإثبات عظمته سبحانه بالإيمان، بأنَّ له جميع معاني العظمة والجلال، وأنه لا يستحقُّ أحدُ التعظيم والتكبير والإجلال سواه.

هذا مجمل محتوياتها، فهي آية عظيمة فيها من المعاني الجليلة والدلالات العميقة والمعارف الإيمانيَّة ما يدلُّ على

عظمها وجلالة شأنها^(١).

٢ - قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ

لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

٣ - قول الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٧٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

[الأنعام: ١٠٢-١٠٣].

٤ - قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

٥ - قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا

يَضُرُّكَ إِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

٦ - قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ

الْوَحْدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَرُ﴾ [ص: ٦٥-٦٦].

(١) انظر: كتابي «آية الكرسي وبراهين التوحيد» (ص/١٤، ١٥).

٧ - قول الله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

٨ - قول الله تعالى: ﴿وَمَا اخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٠-١١].

٩ - قول الله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

١٠ - قول الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

١١ - قول الله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ مَبِينًا دلالة

الآية على ذلك : «اشتملت (أي : الآية) على أصول عظيمة : على توحيد الربوبية وأنه تعالى ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقه ورازقه ومدبره ، وعلى توحيد الألوهية والعبادة وأنه تعالى الإله المعبود ، وعلى أنَّ ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده ، ولهذا أتى فيه بالفاء في قوله : ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ الدالة على السبب أي : فكما أنه ربُّ كلِّ شيءٍ فليكن هو المعبود حقاً فاعبده ، ومنه : الاصطبار لعبادته تعالى وهو جهاد النفس وتمارينها وحملها على عبادة الله تعالى ، فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر وهو الصبر على الواجبات والمستحبات والصبر عن المحرمات والمكروهات ، بل يدخل في ذلك الصبر على البليّات ؛ فإنَّ الصبر عليها وعدم تسخطها والرضى عن الله بها من أعظم العبادات الداخلة في قوله : ﴿وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ ، واشتملت على أنَّ الله تعالى كامل الأسماء والصفات ، عظيم النعوت ، جليل القدر ، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي ، بل قد تفرّد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات»^(١).



(١) «المواهب الربانية من الآيات القرآنية» (ص/ ٤٤ ، ٤٥).

من الأذكار والدّعوات الجامعة لأقسام التوحيد

إنّ الأذكار المشروعة والدّعوات المأثورة عن النبي ﷺ باب عظيم مبارك لترسيخ التوحيد وتجديد عهد الإيمان وثبيت العقيدة وتقوية الصلة بالله - عزّ وجلّ -، وفيها اعتراف بنعمه المتوالية وآلائه المتتالية، وشكرٌ له على تفضّله وإنعامه وجوده وإحسانه، وفيها لجوءٌ إليه وحده، واعتماده عليه دون ما سواه بالتعوّذ به سبحانه من نزغات الشيطان وشرور النفس، وشرّ كلّ ذي شرٍّ من الخلق، ومن شرِّ كلّ نقمةٍ أو بلاءٍ أو مصيبة.

وفيها تقرير لتوحيد الله - عزّ وجلّ - وبراءةٌ وخلوص من الإشراك به، وإقرارٌ وإذعان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ومن كان ذا عناية واهتمام بأدعية النبي ﷺ المأثورة عنه فإنه يبوء ويعترف مرّات كثيرة بأنّ الله عزّ وجلّ وحده هو الذي أَمَات وأَحْيَا، وأَطْعَم وأسْقَى، وأَفْقَر وأَغْنَى، وأَلْبَس وأَكْسَى، وأَضَلّ وَهَدَى، وأنّ له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأنه وحده المستحق لأن يؤلّه ويُعبَد، ويُخضع له ويُذَلّ، وتصرف له جميع أنواع العبادة.

فالذكر كما يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شَمَّرَ إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها، فالذكر يُثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد، وهو أصل كل مقام، وقاعدته التي يُبنى ذلك المقام عليها، كما يُبنى الحائط على أسسه، وكما يقوم السقف على حائطه»^(١).

وفيما يلي ذكر لبعض الأدعية والأذكار الجامعة لأقسام التوحيد الثلاثة:

١ - عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَحِمَهُ اللهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ: اَللّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مَوْقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مَوْقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَصْبِحَ فَهُوَ مِنْ

(١) «الوابل الصيب» (ص/١٣٢).

أهل الجنة»، رواه البخاري^(١).

٢ - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان نبيُّ الله صلَّى الله عليه وآله إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ربِّ أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شرِّ ما في هذه الليلة وشرِّ ما بعدها، ربِّ أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، ربِّ أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر»، وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله»، رواه مسلم^(٢).

٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، مُرّني بكلمات أقولهنَّ إذا أصبحت وإذا أمسيْتُ. قال: «قل: اللّهُمَّ فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربِّ كلِّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطان وشرِّكه».

وفي رواية أخرى: «وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم». قال: «قلها إذا أصبحت وإذا أمسيْتُ، وإذا أخذت

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٠٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٢٣).

مضجعك»، رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما^(١).

٤- عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:
 «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على
 شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت
 وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة
 ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك
 الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت. فإن مت من ليلتك مت
 وأنت على الفطرة، واجعلهن من آخر كلامك». قال: فرددتهن
 لأستذكرهن فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت. قال: «لا،
 ونبيك الذي أرسلت». رواه البخاري ومسلم^(٢).

٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا
 إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: «اللهم رب السماوات، ورب
 الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق
 الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من
 شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، اللهم أنت الأول فليس قبلك

(١) «جامع الترمذي» (٣٣٩٢، ٣٥٢٩)، و«سنن أبي داود» (٥٠٦٧، ٥٠٨٣).

وصححه الألباني رحمته الله في «صحيح الترمذي» (٢٧٠١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١١)، و«صحيح مسلم» (٢٧١٠).

شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر»، رواه مسلم^(١).

٦- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»، رواه البخاري ومسلم^(٢).

٧- عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»، رواه مسلم^(٣).

(١) «صحيح مسلم» (٢٧١٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧١٩).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٧١٧)، ورواه البخاري (٧٣٨٣) مختصراً.

القرآن كله مقررٌ لهذا التوحيد

وفي بيان دلالة القرآن على أنواع التوحيد يقول العلامة ابن القيم رحمته الله بعد أن ذكر أن كل طائفة تُسمَّى باطلها توحيداً: «وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فواء ذلك كله، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جداً الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَتَّاهَلْ أَلْكِتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول

سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام. وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إِنَّ كُلَّ آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فَإِنَّ القرآن إِمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإِمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يُعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطَّلبي، وإِمَّا أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإِمَّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإِمَّا خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، ف﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: توحيد، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: توحيد، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: توحيد، ﴿مَلَائِكَةٍ﴾: توحيد، ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُكَ﴾: توحيد، ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: توحيد، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله

عليهم ﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد . . . »^(١).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ فِي مَقْدَمَةِ كِتَابِهِ الْقِيَمِ «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات»^(٢): «واعلم أنَّ إيراد الآيات القرآنيَّة على إثبات كلِّ مقصد من هذه المقاصد، وإثبات اتفاق الشرائع عليها، لا يحتاج إليه من يقرأ القرآن العظيم؛ فإنَّه إذا أخذ المصحف الكريم وقف على ذلك في أيِّ موضع شاء، ومن أيِّ مكان أحبَّ، وفي أيِّ محل منه أراد، ووجده مشحوناً به من فاتحته إلى خاتمته».



(١) «مدارج السالكين» (٣/٤٤٩، ٤٥٠).

(٢) (ص/٤).

تقسيم التوحيد حقيقة شرعية معلومة بالاستقراء

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد دلَّ استقراء القرآن العظيم على أنَّ توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جُبلت عليه فطرُ العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لَنُنَوِّنْ﴾ [يونس: ٣١]. وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] تجاهل من عارف أنه عبد مربوب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] الآية، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا بِهَا وَأَسْتَفِنتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًا.

الثاني: توحيده جلّ وعلا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى: «لا إله إلا الله»، وهي مترتبة من نفى وإثبات، فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت، في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على السنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ١٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد: قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩] الآية، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] الآية، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول: إِنَّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ

محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده، فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب. والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيده جلّ وعلا في أسمائه وصفاته، وهذا النوع من التوحيد ينبنى على أصليين:

الأول: تنزيه الله جلّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقد قدّمنا هذا المبحث مستوفى موضحاً بالآيات القرآنية في سورة الأعراف.

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جلّ وعلا على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقرّوا بربوبيته

احتجَّ بها عليهم على أنَّه هو المستحقُّ لأن يُعبد وحده، ووبَّخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنَّه هو الربُّ وحده؛ لأنَّ مَنْ اعترف بأنَّه الربُّ وحده لزمه الاعتراف بأنَّه هو المستحقُّ لأن يُعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فلَمَّا أقرُّوا بربوبيته وبَّخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، فلَمَّا اعترفوا وبَّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٥) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، فلَمَّا أقرُّوا وبَّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ مِ يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ [المؤمنون: ٨٨-٨٩]، فلَمَّا أقرُّوا وبَّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾، فلما صح الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم شرهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فلما صح اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم شرهم بقوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم شرهم بقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فلما صح اعترافهم وبخهم الله منكرًا عليهم بقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أن القادر على خلق السموات والأرض وما ذكر معها خير من جماد

لا يقدر على شيء . فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرأ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ ، ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله . فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرأ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، ثم قال جلَّ وعلا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ ، ولا شك أنَّ الجواب كما قبله . فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرأ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَرًا وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ، ولا شك أنَّ الجواب كما قبله . فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرأ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، ثم قال جلَّ وعلا: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ، ولا شك أنَّ الجواب كما قبله . فلما تعين الاعتراف وبخهم منكرأ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤] .

وقوله: ﴿أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ ثُمَّ يُرْزُقُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ

هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ ﴿٤٠﴾ ، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو : لا ، أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء . فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرهم عليهم بقوله : ﴿سُبْحَنُكَ وَعَمَّا يَشْرِكُونَ﴾ [الروم : ٤٠] .

والآيات بنحو هذا كثيرة جداً ، ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع : أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير ، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار ؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة ؛ نحو قوله تعالى : ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، وقوله : ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَتِي رَبًّا﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار ؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار ؛ لأنهم لا ينكرون الربوبية كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه .

والكلام على أقسام التوحيد ستجده إن شاء الله في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك بحسب المناسبات في الآيات التي نتكلم على بيانها بآيات أخر^(١) اه كلامه ﷺ .

وقد نقلتُ كلامه بطوله لأهميته، وقد نبّه فيه رَحِمَهُ اللهُ إلى أنَّ أقسام التوحيد الثلاثة مأخوذة بالاستقراء لنصوص القرآن الكريم، وبهذا يُعلم أنَّ هذا التقسيم من الحقائق الشرعيّة المستمدة من كتاب الله تعالى، وليس أمراً اصطلاحياً أنشأه بعض العلماء.

قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ: «هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرّره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرّره الزبيدي في «تاج العروس»، وشيخنا الشنقيطي في «أضواء البيان» في آخرين رحم الله الجميع، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلِّ فنٍّ، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء»^(١).

وما يؤمن بالتوحيد من لم يؤمن بهذه الأقسام الثلاثة المستمدة من نصوص الشرع؛ إذ التوحيد المطلوب شرعاً هو الإيمان بوحداية الله في ربوبيته وألوهيّته وأسمائه وصفاته، ومن لم يأت بهذا جميعه فليس موحدًا.

(١) «التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير» (ص/ ٣٠).

دلالة كلمة التوحيد على هذا التقسيم

بل إن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» التي هي أصل الدين وأساسه قد دلّت على أقسام التوحيد الثلاثة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله : «وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات، وهي الأصول الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أنزل إليهم، وهي الأصول الكبار التي دلّت عليها وشهدت بها العقول والفطر».

وأما وجه دلالة هذه الكلمة العظيمة على أقسام التوحيد الثلاثة فظاهر تماماً لمن تأملها، فقد دلّت على إثبات العبادة لله ونفيها عن سواه، كما دلّت أيضاً على توحيد الربوبية؛ فإنّ العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، ودلّت على توحيد الأسماء والصفات؛ فإنّ مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء بل هو عدم محض، كما قال بعض العلماء: المشبه يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والموحد يعبد إله الأرض والسماء^(١).

(١) انظر: «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد (ص/٩) وقد نقلت نصّ شيخ الإسلام عنه.

روى مسلم في «صحيحه»^(١) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه كان يقول في دبر كل صلاة حين يُسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». وقال: كان رسول الله ﷺ يهَلِّلُ بهنَّ دبر كل صلاة.

وقد جمع هذا التهليل المبارك أنواع التوحيد الثلاثة: أما توحيد العبادة فقد تكررت فيه كلمة التوحيد لا إله إلا الله - ثلاث مرات -، وأُتبعَت في كل مرة بما يقرّر معناها، ويؤكد حقيقتها، ويوضح مدلولها.

فقوله بعد التهليلة الأولى: «وحده لا شريك له» تأكيد لما قرّره من النفي والإثبات؛ فقوله: «وحده» تأكيد للإثبات، وقوله: «لا شريك له» تأكيد للنفي.

وقوله بعد التهليلة الثانية: «ولا نعبد إلا إياه» فيه بيان لمعناها وتفسير لمدلولها، وأنها تعني نفي العبادة بجميع أنواعها وأفرادها عن كل من سوى الله وإثباتها لله وحده لا شريك له.

وقوله بعد التهليلة الثالثة: «مخلصين له الدين» تقريرٌ لمدلولها كذلك، وأنها كلمة الإخلاص، فلا يستفيد منها قائلها إلا إذا أخلص دينه لله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وكلُّ ذلك تقريرٌ لتوحيد العبادة، ويمكن أيضاً أن يُلخص منه تعريفٌ جامعٌ لتوحيد العبادة، فيقال هو: أن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين.

وأما توحيد الربوبية ففي قوله: «له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»، وفي قوله: «له التَّعَمَّةُ وله الفضل»؛ إذ إنَّ تفردَه سبحانه بالملك والقدرة على كل شيء والنعمة والفضل كله من معاني ربوبيته سبحانه، ومما يحمد عليه عز وجل أنه ربُّ العالمين لا ربَّ لهم سواه ولا مالك إلا هو، والتَّعَمَّةُ بيده والفضل فضله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأما توحيد الأسماء والصفات ففي قوله: «وله الحمد»؛ لأنه سبحانه يُحمد كذلك على أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وأيضاً في قوله: «وله الثناء الحسن» حيث إنَّه سبحانه يُثنى عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا كما قال أعلم خلقه به نبينا

محمد ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، رواه مسلم^(١). وكذلك قوله ﷺ في حديث الشَّفاعة: «ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثَّناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي» رواه البخاري ومسلم^(٢). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته»^(٣).

وقد ذُكر كلُّ من توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات في هذا التهليل المبارك للاستدلال بهما على توحيد العبادة، وبيان أنَّ المتفرد بالملك والحمد والقدرة على كلِّ شيء والنعمة والفضل، والمتفرد بالثناء الحسن لعظمة أسمائه وكمال صفاته هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأَنَّ المعبود بحق ولا معبود بحق سواه، وأنَّ عبادة من سواه ضلال وباطل وكفرٌ وطغيان.

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) «بدائع الفوائد» (١/١٧٦).

وبهذا يعلم أن هذه الكلمات ليست ألفاظاً مجردة لا تدل على معنى، بل لها معانٍ عظيمة، ودلالات عميقة تنتظم التوحيد بأنواعه الثلاثة، والواجب على كل من يردّد هذه الكلمات أن يستحضر ما دلّت عليه، وأن يعرف ما تضمنته بحيث يكون مستمسكاً بالتوحيد محافظاً عليه مراعيّاً لحقوقه مجانّباً تمام المجانبية لنواقضه وما يضاؤه، صادعاً به لا تأخذه في الله لومة لائم، ولو كره الكافرون.



دلالة «لا حول ولا قوة إلا بالله» على تقسيم التوحيد

وهي كلمة عظيمة لها من الفضائل والفوائد والثمار ما لا يحصىه إلا الله، وفيها من المعاني العميقة والدلالات المفيدة ما يثبت الإيمان ويرسخ التوحيد ويقوّي اليقين ويزيد الصلة برب العالمين، ومن ذلكم اشتغالها على تقسيم التوحيد؛ فإن من جملة دلالات هذه الكلمة العظيمة:

١- تضمنها الإقرار بربوبية الله وأنه وحده الخالق لهذا العالم، المدبّر لشؤونه، المتصرّف فيه بحكمته ومشئته، لا يقع شيء في هذا العالم من حركة أو سكون، أو خفض أو رفع، أو عزّ أو ذلّ، أو عطاء أو منع إلّا بإذنه، يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يُغالب، بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [فاطر: ٢]، فالقائل لتلك الكلمة مقرّ بهذا، مذعن به، معترف أنّ أموره كلها بيد

ربّه ومليكه وخالقه لا قدرة له على شيء ولا حول ولا قوة إلاّ بإذن ربّه ومولاه، وبتوفيق سيّده ومليكه، ولهذا إليه يلجأ، وبه يستعين، وعليه يعتمد في كلّ أحواله وفي جميع شؤونه.

٢- تضمّنها الإقرار بأسماء الله وصفاته، إذ القائل لهذه الكلمة - ولا بدّ - مقرّ بأنّ المدعو المقصود الملتجأ إليه بهذه الكلمة، غني بذاته، وكلّ ما سواه فقير إليه، قائم بذاته، وكلّ ما سواه لا يقوم إلاّ به، قدير لذاته، وكلّ ما سواه عاجز لا قدرة له إلاّ بما أقدره، متصف بجميع صفات الكمال ونعوت العظمة والجلال، وكلّ ما سواه ملازمه التقص، وليس الكمال المطلق إلاّ له سبحانه وتعالى، فلعظمة أسمائه وكمال نعوته وصفاته استحقّ أن يقصد وحده، وأن لا يلجأ إلاّ إليه.

٣ - تضمّنها الإقرار بالوحيّة الله، وأنه وحده المعبود بحقّ ولا معبود بحقّ سواه، وذلك في قوله: «إلاّ بالله».

والله معناه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذو الألوهية والعبوديّة على خلقه أجمعين»^(١). وقد جمع رضي الله عنه في هذا التفسير بين ذكر الألوهية وهي الوصف المتعلّق بالله من هذا الاسم، فهو

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٥٤/١).

سبحانه المألوه المعبود المرجو المطاع الذي لا يستحق العبادة
أحدٌ سواه، وبين وصف العبد وهو العبودية، إذ إنَّ عباد الله
هم الذين يعبدونه ويألهونه ويقومون بطاعته وحده لا شريك
له^(١).



(١) انظر كتابي «الحوقلة، مفهومها، وفضائلها، ودلالاتها العقدية».

ذكر بعض أقوال السلف في تقرير هذه الأقسام

كُتِبَ السلف الصالح مليئةً بالتصريح تارة والإشارة تارة إلى هذه الأقسام، ولو ذهبْتُ أنقل كلَّ ما أعلمه من أقوالهم في ذلك لطال المقام، لكن حسبي أن أورد هنا بعضَ النقول عن سلف هذه الأمة، ونزراً يسيراً من كلام أهل العلم المشتملة على ذكر أقسام التوحيد الثلاثة مقتصرأً هنا على مَنْ كان قبل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم تكذيباً لدعوى من ادعى أن هذا التقسيم لم يعرف إلا في زمنه.

١- قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ هـ في كتابه «الفقه الأَبسط»^(١): «والله يُدعى من أعلى لا من أسفل؛ لأنَّ الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء».

فقوله: «يُدعى من أعلى لا من أسفل . . .» فيه إثبات العلوِّ

للّه، وهو من توحيد الأسماء والصفات، وفيه رد على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرهم من نفاة العلوّ.

وقوله: «من وصف الربوبية» فيه إثبات توحيد الربوبية.

وقوله: «والألوهية»: فيه إثبات توحيد الألوهية.

٢ - قال ابن منده في كتابه «التوحيد»: أخبرنا محمد بن أبي جعفر السرخسي، ثنا محمد بن سلمة البلخي، ثنا بشر بن الوليد القاضي، عن أبي يوسف القاضي (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة ١٨٢هـ) أنّه قال: «ليس التوحيد بالقياس، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل في الآيات التي يصف بها نفسه أنّه عالم قادر قوي مالك ولم يقل: إني قادر عالم، لعله كذا أقدر، بسبب كذا أعلم، وبهذا المعنى أملك، فلذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يعرف إلا بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدُؤا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] الآية، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الآية.

قال أبو يوسف: لم يقل الله: انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر وكيف أنا الخالق، ولكن قال: انظر كيف خلقت. ثم قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوفِّيكُمْ﴾ [النحل: ٧٠]، وقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] أي: تعلم أن هذه الأشياء لها رب يقبلها ويبيدها ويعيدها، وأنت مكوّن ولك من كونك. وإنما دلّ الله عز وجل خلقه بخلقه ليعرفوا أن لهم رباً يعبدوه ويطيعوه ويوحّدوه، ليعلموا أنه مكوّنهم، لا هم كانوا. ثم تسمّى فقال: أنا الرحمن وأنا الرحيم وأنا الخالق وأنا القادر وأنا المالك، أي هذا الذي كوّنكم يُسمّى المالك القادر الله الرحمن الرحيم بها يوصف.

ثم قال أبو يوسف: يُعرف الله بآياته وبخلقه، ويُوصف بصفاته، ويُسمّى بأسمائه كما وصف في كتابه، وبما أدى إلى الخلق رسوله.

ثم قال أبو يوسف: إنّ الله عز وجل خلقك وجعل فيك آلات وجوارح عجز بعض جوارحك عن بعض، وهو ينقلك من حال إلى حال، لتعرف أن لك ربّاً، وجعل فيك نفسك عليك حجة بمعرفته تتعرّف بخلقه، ثم وصف نفسه فقال: أنا الربّ وأنا الرحمن وأنا الله وأنا القادر وأنا المالك، فهو يوصف

بصفاته ويُسمى بأسمائه، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]، فقد أمرنا الله أن نوحده، وليس التوحيد بالقياس؛ لأنَّ القياس يكون في شيء له شبه ومثل، فالله تعالى وتقدس لا شبه له ولا مثل له تبارك الله أحسن الخالقين.

ثم قال: وكيف يُدرَك التوحيد بالقياس وهو خالق الخلق بخلاف الخلق، ليس كمثله شيء تبارك وتعالى. وقد أمرَك الله عز وجل أن تؤمن بكلِّ ما أتى به نبيه ﷺ فقال: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسُ مِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فقد أمرَك الله عز وجل بأن تكون تابعاً سامعاً مطيعاً، ولو يوسَّع على الأمة التماس التوحيد وابتغاء الإيمان برأيه وقياسه وهواه إذاً لضلوا، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن

فِيهِ ^(١) [المؤمنون: ٧١]، فافهم ما فسر به ذلك ^(١).

ورواه أيضاً الإمام الحافظ قوام السنة أبو القاسم إسماعيل التيمي الأصبهاني المتوفى سنة ٥٣٥ هـ في كتابه «الحجة في بيان المحجة وشرح التوحيد ومذهب أهل السنة»، ولأهميته عنده خصّه بفصل مستقل فقال: «فصل في النهي عن طلب كيفية صفات الله عز وجل»، وذكره بإسناده من طريق السرخسي به ^(٢).

وأثر أبي يوسف هذا الذي رواه هذان الإمامان عظيم القدر، مشتمل على أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

قال شيخنا الدكتور علي فقيهي في التعليق على هذا الأثر: «... وقد ذكر أبو يوسف كلاماً نفيساً في باب التوحيد، هو ظاهر في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات. فذكر أنّ التوحيد لا يكون بالقياس، مبيناً أنّ القياس لا يكون إلا إذا وجدت علة، حيث قال: ألم تسمع إلى قول

(١) «التوحيد» لابن منده (٣/ ٣٠٤-٣٠٦)

(٢) انظر: «الحجة» للتيمي (١/ ١١١-١١٣).

اللَّهُ عز وجل في الآيات التي يصف بها نفسه أنه عالم قادر قوي ولم يقل إنني قادر عالم لعله كذا، أو أقدر بسبب كذا، قال : ولذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يُعرف الله إلا بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته، ثم ذكر أدلة ذلك، ثم قال : لم يقل الله انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر، وإنما قال : انظر كيف خلقت... الخ. إن ما ذكره ﷺ لا يحتاج لبيان، فراجعته تجد فيه الردَّ على الملحدين في الربوبية وفي الأسماء والصفات مستدلًا بذلك على توحيد العبادة والطاعة لله وحده^(١).

٣- قال ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]: «فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه»^(٢).

٤- قال الإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي المتوفى سنة ٣٢١ هـ في مقدمة متنه في العقيدة المشهور بالطحاوية: «نقول في توحيد

(١) انظر: هامش «كتاب التوحيد» لابن منده (٣/٣١٠).

(٢) «جامع البيان» (٢٦/٥٣-٥٤).

اللَّهَ معتقدين بتوفيق الله : إِنَّ اللَّهَ واحد لا شريك له ، ولا شيء مثله ، ولا شيء يعجزه ، ولا إله غيره . . . » .

فقوله : « إِنَّ اللَّهَ واحد لا شريك له » شاملٌ لأقسام التوحيد الثلاثة ، فهو سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته ، وواحد لا شريك له في ألوهيته ، وواحد لا شريك له في أسمائه وصفاته .
وقوله : « ولا شيء مثله » هذا من توحيد الأسماء والصفات .
وقوله : « ولا شيء يعجزه » هذا من توحيد الربوبية .
وقوله : « ولا إله غيره » هذا توحيد الألوهية .

فهذه أقسام التوحيد الثلاثة صريحة واضحة في نصِّ هذا الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ ، وقد ذكر في مقدمة متنه المذكور أنَّه مشتمل على : « بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة : أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وما يعتقدون من أصل الدين ، ويدينون به رب العالمين » .

٥- قال أبو محمد عبد الله بن محمد النيسابوري الحيري المعروف بالمرتعث المتوفى سنة ٣٢٨ هـ صاحب الجُنيد : « أصول التَّوْحِيد ثلاثة : معرفة الله بالربوبية ، والإقرار له

بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة^(١).

٦- قال أبو حاتم محمد بن حبان البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ في مقدمة كتابه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء»: «الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية، القائم على نفوس العالم بآجالها، والعالم بتقلبها وأحوالها، المانّ عليهم بتواتر آلائه، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بعزته إرادته . . .».

فذكر الأقسام الثلاثة: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

٧- قال ابن أبي زيد القيرواني المالكي المتوفى سنة ٣٨٦هـ في أول عقيدته من مقدّمة «الرسالة»: «من ذلك: الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير، ولا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا شريك له، ليس لأوليّته ابتداء ولا لآخريته انقضاء، لا يبلغ كنه صفته

(١) أورده أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٥٦).

الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون . . . إلى أن قال: . . . تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالقاً لكل شيء، ألا هو ربّ العباد وربّ أعمالهم والمقدّر لحركاتهم وأجالهم . . .».

٨- قال الإمام أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطّة العكبري الحنبلي، المتوفى سنة ٣٨٧هـ في كتابه «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة»: « . . . وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته؛ ليكون بذلك مبايناً لمذهب أهل التعطيل الذين لا يشبتون صانعاً.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته؛ ليكون مبايناً بذلك لمذهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقد موصوفاً بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفاً بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه.

إذ قد علمنا أن كثيراً ممن يقرُّ به ويوحّده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته فيكون إلحاده في صفاته قادحاً في توحيده.

ولأننا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها.

فأما دعاؤه إياهم إلى الإقرار بربانيته ووجدانيته فلسنا نذكر هذا هاهنا لطوله وسعة الكلام فيه، ولأنَّ الجهميَّ يدَّعي لنفسه الإقرار بهما وإن كان جحده للصفات قد أبطل دعواه لهما...»^(١). ثم أخذ يورد ما يدلّ على بطلان قول الجهميَّة في نفي الصفات.

وهذا نصرٌ في غاية الوضوح في ذكر أقسام التوحيد الثلاثة.

وتأمل - يا رعاك الله - قول ابن بطة: «ولأننا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها»؛ ففيه أبلغ ردّ على من يزعم أنَّ هذا التقسيم لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ.

وتأمل قوله في بداية كلامه: «وذلك أنَّ أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء...»؛ فقد نصَّ رَحِمَهُ اللهُ على أنَّ أقسام التوحيد الثلاثة هي أصل الإيمان الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان

(١) «الإبانة» لابن بطة (٦٩٣-٦٩٤) من النسخة الخطية، وفي مختصره

باللَّه، ومعنى ذلك أنَّه لا إيمان لمن لم يأت بهذه الأمور الثلاثة ولا توحيد؛ إذ الإيمان والتوحيد هو أفراد اللّهُ وحده بهذه الأمور الثلاثة، فمن لم يأت بتوحيد الربوبية فهو معطل للخالق مشرك في ربوبية اللّهُ، ومن لم يأت بتوحيد الألوهية فهو مشرك في ألوهية اللّهُ وعبادته كالمشركين عبدة الأصنام، ومن لم يأت بتوحيد الأسماء والصفات فهو كافر ملحد في أسماء اللّهُ وصفاته.

٩- ذكر الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق ابن يحيى بن منده المتوفى سنة ٣٩٥هـ. في كتابه «كتاب التوحيد ومعرفة أسماء اللّهُ عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد» أقسام التوحيد، واستعرض كثيراً من أدلتها في الكتاب والسنة بشرح وبسط لا مزيد عليه.

فمن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الربوبية ما يلي:

١- ذِكْرُ ما وصف اللّهُ عز وجل به نفسه ودلّ على وحدانيته عز وجل وأَنَّه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

٢- ذِكْرُ معرفة بدء الخلق.

٣- ذِكر ما يدل على أَنَّ خلق العرش تقدّم على خلق الأشياء.

٤- ذِكر ما يدل على أَنَّ الله قدّر مقادير كلّ شيء قبل خلق الخلق.

٥- ذِكر ما يستدل به أولو الأبواب من الآيات الواضحة التي جعلها الله عز وجل دليلاً لعباده من خلقه على معرفته ووحدانيته من انتظام صنعته وبدائع حكمته في خلق السموات والأرض ...

٦- ذِكر ما بدأ الله عز وجل من الآيات الواضحة الدالة على وحدانيته.

٧- ذِكر الآيات المتفقة المنتظمة الدالة على توحيد الله عز وجل في صفة خلق السموات التي ذكرها في كتابه وبينها على لسان رسوله ﷺ تنبيهاً لخلقه^(١).
ثم ذكر أبواباً أخرى.

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الألوهية ما يلي :

١- ذِكر معرفة أسماء الله عز وجل الحسنة التي تسمّى بها وأظهرها لعباده للمعرفة والدعاء والذكر.

(١) انظر هذه الأبواب في كتابه «التوحيد» (١/ ٦١ - ١١٦).

٢- ذِكْرُ معرفة اسم الله الأكبر الذي تَسَمَّى به وشَرَّفه على الأذكار كلها.

وذكر تحت هذا الباب، ما يلي:

أ - قول النبي ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أَدْعُو النَّاسَ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

ب - قول النبي ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

ج - قول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَكَ».

د - قول النبي ﷺ لرجل: «قل ربي الله، ثم استقم».

هـ - قول النبي ﷺ لرجل: «الله يمنعني منك».

و - قول النبي ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله عز وجل، ومن حلف بغير الله فقد أشرك».

ز - قول النبي ﷺ: «اذكروا الله على جميع الأمور، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: ١٠]»^(١).

وذكر أموراً أخرى كثيرة متعلقة بتوحيد الألوهية.

(١) انظر هذه الأبواب في كتابه «التوحيد» (٢/ ١٤ - ٤٦).

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الأسماء والصفات ما يلي:

- ذكرُ معرفة صفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه، وأنزل بها كتابه، وأخبر بها الرسول ﷺ على سبيل الوصف لربه عز وجل مبيناً ذلك لأُمَّته.

وذكرَ أبواباً أخرى كثيرة في توحيد الأسماء والصفات^(١)، وكان قبل هذا ذكر جملة كبيرة من أسماء الله الحسنى^(٢).

قال شيخنا الدكتور علي بن ناصر فقيهي في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن منده المتقدم: «ومؤلف هذا الكتاب عاش في القرن الرابع الهجري (٣١٠ - ٣٩٥هـ)، وقد اشتمل كتابه على أقسام التوحيد التي ورد ذكرها في كتاب الله تعالى: توحيد الربوبية توحيد الألوهية توحيد الأسماء والصفات، فبدأ بقسم الوجدانية في الربوبية مستدلاً به على توحيد الله في الألوهية، ثم ذكر عنواناً لتوحيد الأسماء، ومنه دخل في توحيد الألوهية، وذلك من الفصل الثاني والأربعين إلى الفصل الخمسين، ثم عاد لتكميل أسماء الله تعالى، ثم أتبعه بتوحيد الصفات حيث بحثه

(١) انظر هذه الأبواب في كتابه «التوحيد» (٧/٣) إلى نهاية الكتاب.

(٢) انظر: كتابه «التوحيد» (٢/٤٧ - ٢٠٨).

مستقلاً عن أسماء الله عز وجل ، ثم عاد إلى توحيد الربوبية بالتصريح بذلك في آخر الكتاب ، ولم يخرج في استدلاله على ذلك عن كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ وأقوال السلف كما يجد ذلك القارئ في الكتاب^(١).

١٠- قال أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي المالكي المتوفي سنة ٥٢٠هـ في مقدمة كتابه «سراج الملوك»^(٢):
«وأشهد له بالربوبية والوحدانية، وبما شهد به لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والنعوت الأوفى».

فذكر الأقسام الثلاثة.

١١- قال أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المالكي المتوفى ٦٧١هـ: «قاله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتمفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه»^(٣).

وقال أيضاً: «أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالى

(١) انظر: مقدمة كتاب «التوحيد» لابن منده (٢٧/١-٢٨)، وانظر أيضاً ما ذكره شيخنا - حفظه الله - في وصف الكتاب ومباحثه (٢٣/١ - ٤٢).

(٢) (٧/١).

(٣) «تفسير القرطبي» (٧٢/١).

في الإلهية، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إنَّ موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهاً^(١).

فهذه جملة من النصوص عن أئمة من السلف وعلماء المسلمين رحمهم الله في عصور مختلفة، مشتملة على أقسام التوحيد الثلاثة بغاية الجلاء والوضوح، دالة على أنَّ أهل السنة والجماعة متتابعون على مرِّ القرون على هذا التقسيم، وهكذا من جاء بعد هؤلاء من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيم، والحافظ ابن كثير، والإمام الذهبي، والمقرئزي، وابن أبي العزِّ الحنفي، والسقاريني، والصنعاني، والشوكاني، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه وغيرهم كثير مما يصعب حصره ويطول استقصاؤه. فهؤلاء جميعاً ليس بينهم خلاف في تقرير هذه الأقسام، وذلك اتباعاً منهم للكتاب والسنة، ولزوم لما جاء فيهما، فهم يتبعون ولا يبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ومخالفوهم هم أهل البدع

(١) «تفسير القرطبي» (١١٨/٥).

والأهواء، المُشاقُّون لله ولرسوله، المتَّبِعون غير سبيل المؤمنين.

ونسأل الله أن يرزقنا التوحيد الخالص والإيمان الراسخ، وأن يوفقنا لاتباع هدي سيّد المرسلين وإمام الموحّدين: نبينا محمّد صلى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.



فهرس الموضوعات

- ٥ المقدمة
- ٦ بيان مختصر لأقسام التوحيد
- ٨ أؤداد هذه الأقسام
- ١٠ توحيد الربوبية وحده لا يكفي
- ١٤ ذكر بعض دلائل هذه الأقسام
- ١٧ من الآيات الجامعة لأقسام التوحيد الثلاثة
- ٢٢ من الأذكار والدعوات الجامعة لأقسام التوحيد
- ٢٧ القرآن كله مقرر لهذا التوحيد
- ٣٠ تقسيم التوحيد حقيقة شرعية معلومة بالاستقراء
- ٣٨ دلالة كلمة التوحيد على هذا التقسيم
- ٤٣ دلالة «لا حول ولا قوة إلا بالله» على تقسيم التوحيد
- ٤٦ ذكر بعض أقوال السلف في تقرير هذه الأقسام
- ٦٣ فهرس الموضوعات

تم الصف والإخراج

بشركة دار الكرامة

للنشر والتوزيع والهداية والإعلان

ت: ٢٤٧٢٠٧٠٧